المحاضرة السابعة: النظريات الاجتماعية

تمهيد:

تشترك النظريات الاجتماعية في اعتقاد واحد مفاده أن نمو السكان لا يرجع إلى قانون طبيعي ثابت، وإنما للظروف الاجتماعية التي تحيط بهم، والتي تضم مجموعة من العوامل المتباينة التأثير على هيكل السكان ومورفولوجيته، ونتناول في هذه المحاضرة أهم هذه النظريات:

1) نظرية إيميل دوركايم:

إيميل دوركايم David Emile Durkheim (1858-1917) هو أحد أبرز علماء الاجتماع الفرنسيين، اشتهر بنظريته حول تقسيم العمل والتي تم إسقاطها في حقل الدراسات السكانية، وقد لخص أفكاره في هذا المجال في عبارته: **" تعد الزيادة السكانية عاملا مهما لتقسيم العمل الاجتماعي وهذا يشمل نقطة الانطلاق لسلسلة من الإصلاحات والتطورات في جوانب الحياة المختلفة"** ، حيث أكد دوركايم من خلال عبارته هذه على الدور الايجابي لحجم السكان ونموه على تحقيق التقدم الاجتماعي والاقتصادي.

فقد أشار دوركايم إلى أن الزيادة السكانية في المدن تتم وفق آلية مختلفة على نظيرتها في الأرياف، ففي الريف يزداد السكان بفعل النمو الطبيعي، أما في المدن فعددهم ينمو بفعل عامل الهجرة، وهو ما يجعلهم يعيشون بصورة متراصة تدفعهم إلى الدخول في علاقات وروابط قوية لتسهيل عملية تبادل الأعمال والأفعال بينهم لإنتاج قوتهم، حيث أكد أن عملية تقسيم العمل الاجتماعي تكون أكثر سهولة كلما زاد عدد أفراد المجتمع، وتؤدي بدورها إلى سلسلة من التطورات الأخرى في مختلف مجالات الحياة.

واستند دوركايم في نظريته حول تطور المجتمعات إلى الزيادة السكانية، فحسب رأيه فإن المجتمعات أصبحت أكثر تقدما لأن كثافتها ازدادت، وهو ما جعل السكان يميلون إلى التكيف مع بعضهم من أجل تحقيق التقدم والرقي، من خلال مرورهم بمراحل اجتماعية واقتصادية حددها بمرحلة الصيد، ثم الرعي، فالزراعة والصناعة، وهكذا فان العلاقة بين الكثافة والتطور هي علاقة طردية، فخلال الانتقال من مرحلة لأخرى تزداد الكثافة والتركيز والاحتكاك ويتولد تيار من الأفعال وردود الأفعال.

- **نقد النظرية:** لاقت نظرية دوركايم جملة من الانتقادات أهمها:

- اهتمامه بجانب واحد في المجتمع في تفسيره للظواهر السكانية، وهو تقسيم العمل الاجتماعي.
- طغت عليه النزعة الاجتماعية وأهمل المتغيرات الأخرى.
- تميزت نظريته بطابع استاتيكي ثابت، وطغت عليها صفة التعميم، حيث ربط طاقة أي مجتمع في قدرته على استيعابه لأفراده الذين يعدون هم مصدر هذه الطاقة، بالرغم من وجود شواهد واقعية تثبت عكس ذلك. (فالمجتمعات المتخلفة لا تشكل الكثافة السكانية بالنسبة لها مصدر قوة بل عبء ديمغرافي، وفي نفس الوقت فإن الكثير من المجتمعات المتقدمة تستمد قوتها من التطور العلمي والتكنولوجي بالرغم من قلة سكانها)

2) نظرية أرسين ديمون:

أرسين ديمون Arsene Dumont (1840-1902) هو ديمغرافي فرنسي اهتم بالقضايا الاجتماعية التي تؤثر في السكان، حيث تبنى مبدأ جديد في علم السكان أطلق عليه **الارتقاء الاجتماعي**، وذلك انطلاقا من دراسته للنمو السكاني في فرنسا أواخر القرن 19، إذ أصدر سنة **1890** كتاباً بعنوان **تناقص سكان المدنية** عالج فيه مشكلة السكان من وجهة نظر أخلاقية، وأكد على أهمية التزايد السكاني في الجانبين الأخلاقي والمعنوي للبشر، وفسر فكرته هذه بكون الأسرة سيما كثيرة العدد تشكل عاملا أخلاقيا مهذبا بالنسبة للوالدين والأطفال معاً، ومن الطبيعي أن يستفيد المجتمع من هذه الآداب، فوجود الأطفال يفرض على الوالدين ضرورة التحلي بالمسؤولية والحرص وتجنب الوقوع في الخطأ، وهو الذي ينعكس على الأطفال بالفائدة النفسية والاجتماعية في ظل عدد كبير من الإخوة والأخوات، كما يرى بأن الأطفال في الأسر الكبيرة يتفوقون على الأطفال في أسر الطفل الوحيد تفوقاً جسدياً وفكريا لأنهم أعدوا منذ البداية على الاعتماد على النفس، كما أشار إلى أن **التقدم الحضري (الارتقاء الاجتماعي)** هو عامل رئيسي لإضعاف الرغبة في الإنجاب.

وقد عرفت نظرية ديمون كذلك بـ: **نظرية الشعيرية الاجتماعية*، وكذلك بنظرية العزلة الاجتماعية**، إذ اعتبر ديمون أن انشغال الفرد بالارتقاء وتحسين أحواله الشخصية هو عامل من عوامل تفكك الأسرة، وقلة الإنجاب، وتدهور أخلاق المجتمع، وضعف روح القوميةُ، فالشخص الذي يميل إلى الصعود إلى مستويات أعلى من بيئته الاجتماعية يصبح أقل قدرةً من الناحية الاجتماعية على التكاثر،

---

* سميت **بالشعيرية الاجتماعية** لأنه شبه الفرد في المجتمع بالزيت في شريط المصباح ينتقل سريعا إلى مستويات أعلى بفعل الخاصية الشعرية، فالمدن الكبرى في المجتمعات الديمقراطية تفرض جاذبية شعرية قوية على الأفراد الذين يعيشون بالقرب منها ما يسرع بالرغبة في الارتقاء، والتي تؤدي بدورها إلى تناقص معدلات الولادة.

وتضعف لديه الرغبة في الإنجاب، لأنه ابتعد عن بيئته الطبيعية وركز على رفاهيته الخاصة، وفقد اهتمامه بالحياة الأسرية، بسبب انشغاله بعملية الارتقاء الاجتماعي التي تعود عليه بالفائدة الشخصية بغض النظر عن الضرر الذي قد يلحق بمجتمعه، وهو ما أدى حسب رأيه إلى انخفاض معدلات الولادة في الدول المتطورة في ذلك الوقت كفرنسا مثلا وهذا مقارنة مع الدول النامية كالهند، ويطلق ديمون على عملية الانتقال من طبقة دنيا إلى طبقة أعلى بالارتقاء الاجتماعي، والذي يعده من أهم أسباب تحديد حجم الأسر.

- **نقد النظرية:** بالرغم من أهمية نظرية ديمون في إبراز أهمية العوامل الاجتماعية في تزايد عدد السكان أو تناقصه، إلا أنه تعرض لانتقادات كثيرة لأنه لم يعط تفسيرا متكاملا وشاملا لأسباب هبوط نسبة الولادات في فرنسا وغيرها من الدول المتقدمة في ذلك الوقت، إذ تعد الرغبة في الارتقاء التي أتى بها ديمون عاملا محدود التأثير؛ خاصة بالنظر إلى حالة الأسر الغنية في المدن والتي تميل إلى زيادة الإنجاب من أجل الحفاظ على تناسلها.

3) نظرية كنجز لي ديفيز (كينغسلي ديفيس):

كينجزلي ديفيز Kingsley Davis (1908-1997) هو عالم سكان ومؤرخ أمريكي، اهتم بموضوع الديمغرافيا والذي شغل حيزا كبيرا من دراساته، وقد عرض قضاياه النظرية في مقال حمل عنوان: **نظرية التغير والاستجابة في التاريخ الديمغرافي الحديث**.

ومن أهم ما جاء به ديفيز أن فهم التغيرات الديمغرافية لا بد أن ينطلق من فكرة أساسية وهي أن أي مجتمع يميل دائماً بطبيعته نحو التوازن الاجتماعي، وبهذا فقد رفض النظريات التي تحاول تفسير المتغيرات الديمغرافية بالرجوع إلى عامل واحد فقط كالعامل الاقتصادي مثلاً أو العامل الثقافي، لأنها تحاول تبسيط الأمور وتتهرب من التفسيرات المعقدة، كالتفسيرات التي تربط تغيرات الخصوبة بالعوامل الاقتصادية البحتة كقلة الموارد المتاحة، او التي تحاول تفسير السلوك الإنجابي بالرجوع إلى النسق القيمي السائد في المجتمع، أو بالرجوع إلى مفهوم الثقافة التقليدية.

إذ يرى ديفز أن هناك قوى اجتماعية داخل المجتمع نفسه تعمل دائماً على إعادة توازنه، وذلك بالرغم من الضغوط أو المؤثرات التي تنبع من داخل المجتمع ذاته أو من خارجه، والتي تهدد توازنه أو تهدمه أحيانا، والتوازن الذي يميل إليه المجتمع في نظره ليس توازناً بين عدد السكان والموارد المتاحة كما ما اعتقده "مالتوس، ولكنه توازن بين عدد السكان ومتطلبات البناء الاجتماعي (ويقصد بها الموارد

التي يجب تخصيصها للمحافظة على البناء الاجتماعي، أو لتحقيق الأهداف الدينية والتربوية والفنية والترفيهية والسياسة التي يرمي إليها المجتمع)، حيث يرى ديفيز أنه إذا اختل توازن المجتمع يميل السكان إلى التكيف مع هذه الظروف من خلال استجابات متنوعة، وعلى مراحل متعددة، كأن يبدؤوا بتأخير سن الزواج أولا، ثم اللجوء إلى الإجهاض، ثم إلى التعقيم، وهكذا....

وقد حاول ديفيز الاستدلال في أفكاره الديمغرافية بالتطورات السكانية التي حدثت في الدول المتقدمة والتي من بينها تناقص معدل الولادات، حيث أكد أنَّ قلة الموارد المتاحة ليست هي السبب في ذلك، وإنما السبب الحقيقي يعود حسب رأيه إلى الرغبة في الاستفادة من الرفاهية المتزايدة ومن الفرص الجديدة المتاحة في حالة نقصان عدد أفراد الأسرة، فتزداد بالتالي تكاليف التنشئة الاجتماعية التي تهدف على إعداد الطفل للاستفادة من هذه الفرص الجديدة. فالتغير الذي حدث في مستوى الرفاهية والإمكانيات الجديدة التي أتيحت أمام الأفراد (مع بداية التطور العلمي والتكنولوجي) أدى إلى ظهور استجابات متنوعة كتأجيل سن الزواج في ايرلندا، وانتشار وسائل منع الحمل في فرنسا، والالتجاء إلى الإجهاض عند اليابانيين في بادئ الأمر ثم إلى وسائل منع الحمل، ثم إلى التعقيم، ثم إلى تأخير سن الزواج....

- **نقد النظرية:** تعد نظرية ديفيز من أكثر نظريات المدخل المحافظ* حرصاً على التمسك بفكرة التوازن، وقد تعرضت لنفس الانتقادات التي واجهها هذا الاتجاه، كونها نظرية استاتيكية (ثابتة) غير دينامية، لأنها استندت إلى بعض جوانب الواقع واستمدت منها الشواهد التي تؤكد افتراضاتها (واقع الدول المتقدمة)، وأهملت جوانب أخرى مهمة كان بإمكانها الوصول بالنظرية إلى مستويات أعلى من التجريد، كما هو الحال بالنسبة للمجتمعات النامية في العالم الثالث والتي يختلف واقعها جوهريا عما شهدته المجتمعات المتقدمة من ظروف التنمية.

خلاصة:

استند رواد النظريات الاجتماعية في تفسيرهم للظاهرة السكانية إلى اعتبارات اجتماعية متعددة منها ما هو متعلق بتقسيم العمل والانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أكثر تقدما، ومنها ما هو مرتبط برغبة الفرد في الارتقاء الاجتماعي والتي تسوقه إلى تفضيل مصلحته الشخصية على مصلحة مجتمعه ما يؤدي إلى خفض معدل الولادات، ومنها ما هو نابع من كون المجتمع يميل بطبيعته إلى الحفاظ على توازنه من أجل تحقيق الانسجام بين عدد السكان ومتطلبات البناء الاجتماعي (الموارد).

---

* **المدخل المحافظ:** هو المدخل الذي يرى أن المجتمع يميل دائما إلى التمسك بفكرة التوازن، وفي مراحل التغير التي يختل فيها هذا التوازن هناك قوى اجتماعية أو بيولوجية تعمل على إعادة هذا التوازن مرة أخرى.

المراجع:

1. الجامعة المستنصرية. (د ت). نظريات المدخل المحافظ في تفسير الظواهر السكانية 2، تمت زيارة الموقع بتاريخ: 2024/03/06، على الرابط: ...<https://uomustansiriyah.edu.iq
2. لطفي، عبد الحميد؛ والساعاتي، حسن. (1969). دراسات في علم السكان. مصر: دار المعارف
3. د ن.(2016/06/12). نظرية إيميل دوركايم في تفسير التطور السكاني، تمت زيارة الموقع بتاريخ: 2024/03/06، على الرابط: ...<https://magsociologie.blogspot.com